المحاضرة 08: ظواهر التنوعات اللغوي

من أجل تيسير تحديد التنوّعات اللغوية الجغرافية والاجتماعية الموجودة ضمن لغة واحدة، يعتمد الدّارس "الجماعة اللغوية" كفضاء أنسب لتحديد ما تتضمنه هذه الأخيرة من التنوّعات التي تندرج ضمن ذخيرتها اللغوية، وتتمثّل هذه التنوّعات في:

1- اللغة النموذجية واللهجات:

"اللغة النموذجية" هي تنوّع ذو خطوة رسمية وأدبية ويُعتبر نموذجا أعلى للاتباع، لكونه يحمل سمات ترشّحه لهذه المكانة **كامتلاكه لقواعد مستقرة ومنضبطة بقوانين** وأحكام متفق عليها على المستوى العام[1]، ولهذا التنوّع **وظائف خاصة به**، وهو الذي يُستخدم في **المواقف الرسمية، ويوحدّ القوم** على لسان واحد.

تتعرّض بنية اللغة النموذجية للتغيّر والتنوّع والاختلاف، نتيجة **عوامل تاريخية واجتماعية وجغرافية**، ويتولّد عن هذا الاختلاف والتغير تعدّد **اللهجات** في المجتمع الواحد، ليتشكّل خاصة ما يسمى بالازدواجية اللغوية.

إنّ التّغيّر اللغوي، حسب لابوف، **عملية دائبة ومستمرة في كلّ اللغات** بلا استثناء، إذ تختلف البنية اللغوية بسبب عوامل اجتماعية متعددة، مثل: العرق، والجنس، والطبقة الاجتماعي، والمكانة الاجتماعية، والمركز الاقتصادي والعمر والسياق الاجتماعي للكلام الذي يتنوّع من الرسمية إلى السوقية.

وتستعمل كلّ جماعة لغوية ظواهرَ لغوية متنوعة، تتفق في بعض الجوانب التي تشكّل **القدر المشترك** بين المتكلمين، وتختلف في جوانب أخرى، وذلك ما يؤدي إلى **الفروق الفردية**، ولكلّ جماعة **ضروب لغوية** (أي مجموعة من اللغات واللهجات) تُستعمل في سياقاتها الخاصة.

---

[1]– كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مدخل، ص184.

فالمجتمع الجزائري، مثلا، يستخدم اللغة العربية في المدارس والمواقف الرسمية، واللهجات العربية في الاستعمالات اليومية في كثير من ولايات الوطن، كما تحظى اللهجات الأمازيغية بالاستعمال اليومي في مناطق عديدة من البلاد، أضف إلى ذلك اللغة الفرنسية التي لها حضور قويّ في المجتمع الجزائري، لا سيما في التعليم الجامعي (في تدريس المواد العلمية والتقنية)، ولها حضور قويّ أيضا في الاستعمال العام.

وتؤدي عوامل كثيرة ومختلفة ؛ تاريخية، دينية، سياسية واجتماعية...الخ، إلى تنوّع الفصيلة اللغوية وانقسامها إلى مجموعة من اللغات، فتتفرّع كلّ لغة إلى مجموعة من اللهجات، وينتج عن هذا التفرّع **صورتان،** يوضّحهما **علي عبد الواحد وافي** كما يلي: إحداهما انشعاب اللغة الواحدة إلى لهجات محلية (أو الجغرافية) تتكلّم بكل لهجة منها منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة؛ وثانيتهما انشعاب اللهجة الواحدة إلى لهجات اجتماعية تتكلّم بكلّ لهجة منها طبقة خاصة من طبقات السكان[2].

انطلاقا ممّا سبق، فإنّه يوجد في كلّ مجتمع **النموذج اللغوي العام** المتفق عليه (اللغة المشتركة) **وتنوّعات لغوية ذات خصائص لسانية واجتماعية** خاصة بكلّ تنوّع، حيث نميّز في اللغة العربية التي هي لغة العرب جميعا "اللغة العربية الفصحى" التي هي لغة القرآن والحديث الشريف والشعر الجاهلي والأدب بصفة عامة، وقد اختلفت العربية فيما بينها في بعض ظواهرها وتفرّعت عنها عدة لهجات، هذه الأخيرة تختلف قليلا أو كثيرا في بنيتها عن **اللغة النموذجية،** ويوظّفها الناس في حياتهم اليومية وفي المواقف غير الرسمية، وهي تتفرّع بدورها إلى تنوّعات كثيرة ذات خصوصيات ومميزات مكتسبة من البيئة التي تُستعمل فيها ومن طبيعة المستعملين لها، ويشكّل ذلك ما يسمى بالتنوّع اللهجي الذي يتجلى في مختلف التنوّعات المعتمدة في الأداء النطقي، والتي تندرج كلّها ضمن صنفين معروفين، وهما اللهجات المحلية (أو الجغرافية) واللهجات الاجتماعية.

2 - علاقة اللغة النموذجية باللهجات: يرى بعض الباحثين أنّ العلاقة بين اللغة واللهجة هي:

- علاقة العام بالخاص، لأنّ بيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل، تضم عدة لهجات

[2]– علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، ص123.

لكل منها خصائصها، ولكنها تشترك جميعا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسّر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض.

- ويرى الباحثون أنّ كلّ لغة كانت يوما ما لهجة من لهجات كثيرة للغة من اللغات، ثمّ اندثرت تلك اللغة بسبب عوامل كثيرة، وانتشرت كلّ لهجة من لهجاتها في بقعة من الأرض، مكوِّنة لغة لها خصائصها ومميزاتها التي تنفرد بها عن أخواتها، وذلك مثلما حدث للغات السامية التي كانت في الأصل لهجات للغة الأمّ التي ماتت واندثرت من قديم الزمان، واللاتينية التي اندثرت وأصبحت لهجاتها بعد ذلك لغات لها خصائصها، أضف إلى كون اللغة تُعتمد في كتابة الأدب، ولا تعتمد اللهجة في ذلك.

ويميّز الباحثون بين صورتين أساسيتين للهجات، وهما:

أ- اللهجات الجغرافية: ناتجة عن التباين في الموقع الجغرافي، كالحديث في العربية عن اللهجة الجزائرية واللهجة المصرية واللهجة الكويتية...الخ، والحديث في الجزائر عن لهجة العاصمة وما جاورها، ولهجة قسنطينة وما جاورها، ولهجة وهران وما جاورها، ولهجة الجنوب الغربي، ولهجة الجنوب الشرقي، وتشكّل اللهجات الجغرافية موضوع اهتمام علم اللهجات (Dialectologie)، حيث كان هذا العلم في البداية يركز على «الكلمات من حيث صيّغها ودلالاتها ونطقها، وذلك باستعراض اللهجات التي تميّز لهجة من أخرى وتسجيلها على ما يسمى "الأطلس اللغوي" أو "أطلس اللهجات" (...) ومن ثمّ رأى علماء اللهجات المحدثون دعم هذا السبيل بتوجيه النظر أيضا إلى بنية اللهجات وخواصها التركيبية، حتى يمكن تعرف الفروق العميقة بينها، واطلقوا على هذا النهج الجديد اسم "علم اللهجات البنوي"»[3]

ويستهدف الدارسون من دراسة اللهجات المحلية (الجغرافية) الكشف عن واقع لهجة معينة في منطقة ما، ومظاهر التغيّر والتحوّل والتنوّع فيها، ومعرفة أسباب ذلك، والكشف عن هذه الأمور يعني الكشف عن نمط حياة المتحدثين بها، وهويتهم وشخصيتهم.

قد يكون لجماعتين أو أكثر لغة نفسها، لكن بسبب تباعدها جغرافيا، تتغيّر لغاتها مع مرور ال

[3]– كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي – مدخل، ص197.

وقت، وتبتعد عن بعضها، حيث تتأثر كل لغة بتجربة المتحدثين بها، وبحياتهم الثقافية والاجتماعية والطبيعية والسياسية...الخ، ممّا يؤدي إلى الاختلافات الصوتية والمعجمية والنحوية والدلالية بين مختلف اللهجات الجغرافية، حيث كلما اتسعت المسافة الجغرافية الفاصلة بين لهجتين ازداد الاختلاف بينها، فنجد، على سبيل المثال، الأصناف الإقليمية للأمازيغية في شمال الجزائر (في منطقة القبائل) تختلف كثيرا عن اللهجة المعتمدة عند التوارق في الجنوب، وعن الشاوية في الشرق، والسبب يعود بالدرجة الأولى إلى بعد المسافة بين هذه المناطق.

ب- اللهجات الاجتماعية: تتعدد النماذج اللغوية في المجتمع الواحد، حيث تتأثّر البنية اللغوية أيّما تأثّر بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في المجتمع، فـ«كلّ مجتمع ينتظم في إطاره طبقات أو فئات من الناس تختلف فيما بينها اقتصاديا وثقافيا وسياسيا، كما تختلف من حيث منزلتها في السلم الاجتماعي. فهناك الأغنياء ورجال المال والأعمال، وهناك الفقراء والمعوزون، وهناك المثقفون وصفوتهم في مقابل المتواضعين ثقفيا والمحرومين من التعليم والتثقيف...الخ، واللغة تستجيب لهذه الأوضاع وتلبي حاجات كلّ فئة وكلّ طبقة، وبالتالي فإنّ بنية اللغة تخضع لظروف كلّ فئة، ممّا يولّد تنوّعا لهجيا أو ما يسمى باللهجات الاجتماعية، ولا جود لحدود فاصلة بين هذه اللهجات، وبينها وبين اللهجات الجغرافية، بل هي متشابكة ومتداخلة.

وتستخدم كلّ فئة اجتماعية ألفاظا تميّزها عن الفئات الأخرى، وهذا الاختلاف يكون أحيانا بسيطا، وأحيانا أخرى معقدا وملموسا، ومن هنا فإنّ تحديد اللهجات الاجتماعية يعتمد على الوظائف الاجتماعية للتنوّعات السائدة، فهناك اللغة العلمية، واللغة العامة، ولغة المثقفين، ولغة الأميين، ولغة الفلاحين ولغة المهندسين، ولغة الأطفال ولغة الشيوخ ... الخ.

ويوضّح صبري إبراهيم السيد ذلك بمجموعة من الأمثلة، منها[4]:

- **لغة الأطباء**: تدور حول المستشفى، والعيادة، والمريض، والعملية، والدواء، والحقنة، والترمومتر، والسماعة، وجهاز الضغط، والتحاليل، والمصطلحات العلمية الأجنبية ... الخ.

[4]– صبري إبراهيم السيد، علم اللغة الاجتماعي، ص309، 310.

- **لغة المحاميين:** تدور حول القضية، والنيابة، والحكم، والسجن، والإعدام، والبراءة، والشهود، والجناية، والجنحة، والمرافعة، والجلسة... الخ.

- **لغة المدرسين:** المدرسة، والحصة، والواجب، والتلميذ، والامتحان، والنتائج، والدروس، والمراجعة، والشهادة، والكتب، والكراسات، والطباشير، والسبورة... الخ.

- **لغة البنائين:** الرمل، والإسمنت، والحديد، والرفاعة... الخ.

- **لغة الإناث:** الطبخ، الملابس والغسيل، والماكياج، وأنواع التسريح، والمجوهرات... الخ.

لذا يقال بأنّه يوجد من اللغات بقدر ما يُوجد من الأفراد.

إنّ الاختلاف الداخلي للمجتمعات ينعكس على لغاتها، ولا يظهر ذلك كثيرا من خلال رسم الكلمات، بل يتجلى أكثر من خلال التباينات الصوتية والنبرات المصاحبة للكلام، وقد تمتدّ الاختلافات إلى المستوى النحوي والمعجمي. وتكشف دراسة اللهجات الاجتماعية عن علاقة اللغة بالمجتمع، والتعرّف على هوية المتكلمين وسلوكاتهم ووضعهم الاجتماعي والثقافي، والتعرّف على سمات التنوّعات السائدة في المجتمع.

3- الأسلوب: (يشير إلى طريقة الكلام والأسلوب الذي يتبناه المتكلم) ويندرج الأسلوب ضمن التنوّعات اللغوية المتعلّقة بالمواقف الاجتماعية، لا يرتبط بشخصية المتكلّم بل بعوامل أسلوبية، حيث يوظّف أساليب مختلفة باختلاف ظروف الكلام ومناسباته، وموضوعه وأهدافه وأغراضه واختلاف المشاركين في الحديث، ويتجلى الأسلوب أكثر في الاختلافات الموجودة ضمن مستوى **درجة الرسمية،** ويُقصد به اختيار المواد اللغوية التي يكون لها تأثيرات اجتماعية أو فنية، حيث تتنوع أساليب الكلام داخل لغة الفرد نفسه، مما يجعله يدرك كيف يجعل حديثه يتغير مع مدير الجامعة مثلا (أو في موقف رسمي معيّن) عن أسلوبه مع صديقه، ويدرك كيف يستعمل الأساليب المتنوعة في الظروف المختلفة، فقد يتكلم بطريقة رسمية جدا، أو بطريقة غير رسمية جدا، حسب الظروف.

وقد صنّف "مارتن جوز" (M. Joos) سنة (1967) الأساليب الممكن استعمالها من قبل الفرد إلى خمسة مستويات، وهي[5]:

* **الأسلوب الجامد**: وهو الذي يُستعمل فيه كلام رسمي جدا، كأسلوب الخطب الرسمية، والأدعية، والصلوات، وتلاوة الكتب المقدسة، وإلقاء الشعر، وتمثل المسرحيات، ومعظم ما يُنشر مطبوعا. فالمستمع هنا سلبي لا يشارك في النشاط اللغوي.

* **الأسلوب الرسمي:** الخطب التي تلقى أمام جمع غفير، وبعض البرامج الإذاعية والتليفزيونية، وبعض المحاضرات التي تُلقى في الجامعات، ... الخ، هذا الأسلوب يدل على المسافة الاجتماعية بين المتكلم والمستمع.

* **الأسلوب الاستشاري:** كالنقاشات المهنية (بين المسؤول والموظفين...)، فيكثر فيه الأسلوب الرسمي، لكنه يتطلب مشاركة واستجابة السامع، ولا يخطط له المتكلم بعناية كبيرة، لذلك يقلّ فيه استعمال العبارات المقننة، ويعتمد على تراكيب وأشكال لغوية مختصرة.

* **الأسلوب العادي:** تعتمده جماعة من الناس، خاصة الأصدقاء والمقربين، لغرض مناقشة موضوع مألوف، ويُستعمل فيه كثيرٌ من اللغة العامية حتى عندما يكون المتكلمون من المثقفين، كما تُستعمل فيه أيضا اللغة الخاصة بمهنة أو فئة معيّنة من الناس (تواصل شبه رسمي).

* **أسلوب الألفة الشديدة (الحميمي)**: هو المستعمل بين الأصدقاء والأحباب والأزواج وأفراد الأسرة الواحدة، تقلّ فيه الرسمية، أو تنعدم تماما، يتكون غالبا من أشباه الجمل ومفردات وإيماءات، ويكثر فيه استخدام العامية، وتستعمل فيه عبارات ومفردات خاصة بأسرة معينة.

ولكل أسلوب من الأساليب السابقة وظيفة مغايرة للأساليب الأخرى المستخدمة في الكلام، ومثل ذلك ما يُلاحظ في خطب بعض الرؤساء حين ينتقلون انتقالا مفاجئا من اللغة الرسمية إلى اللهجة المتداولة لدى السامعين والهدف من ذلك هو الاقتراب من الجماهير، وبخاصة غير المثقفة.

- أساليب الكلام: تركز على كيفية التعبير في سياق معيّن.

[5]– صبري إبراهيم السيد، علم اللغة الاجتماعي، ص211، 212.

4 - سجلات السياق: استعمالات مرتبطة بالسياق أو حسب الاستعمال، وهي مرتبطة بنوع اللغة التي يفرضها السياق وليس طريقة الكلام كما هو الأمر في الأسلوب، تتحدد بالموقف أو حسب الاستعمال، هذه النّوعية تُستعمل في الغالب ضمن مساحات اجتماعية ضيّقة ترتبط ببعض المواقف المحدّدة، كمقابلة في كرة القدم، أو التكلّم مع الرضيع، ...الخ، ومن سمات سجّل السياق ؛ مفرداته غزيرة، وتُستعمل فيه أشكال أسلوبية مختلفة، فهي غير مرتبطة بانتماء الفرد وهويته وشخصيته وطبيعته، بل بموقف الاستعمال، فلا يقصد بالسجل لهجة الفرد، **لأنّ هذه الأخيرة تُظهر من أنت،** أما السجل فيُظهر **ماذا أنت فاعل**. و«تشمل السجلات المحددة بشكل جيّد لغة القانون، ولغة العلم، وكذلك لغة موسيقى الجاز، وتختلف السجلات اختلافا واضحا عن بعضها البعض من حيث المقياس والدّلالات، (مثلا: المصطلحات العلمية في السّجل العلمي) السّجل متميّز عن اللهجة التي تصف الاختلاف وفقا للخصائص الاجتماعية لمستخدمي اللغة»، فهو مرتبط بمكان الحديث، ودور المتحدّث، وموضوع الحديث. مثال:

- الأب لما يتحدّث في البيت مع أسرته في موضوعات وأنشطة معيّنة، فهو يستخدم مع كلّ مجال نوعية من اللغة المناسبة له (سجل خاص بكل مجال)، أمّا إذا تواجد في مكان العمل، فإنّ لأدوار تختلف (الرئيس، العمال، الزملاء...) وبالتالي، تختلف موضوعات الحديث أيضا، وهي متعلقة بعلاقات العمل، فأثناء الحديث يتمّ اختيار ضروب أو سجّلات لغوية مختلفة لكي يبرز نوع العلاقة التي تهيمن على الوضع الراهن.

كلّ هذه التنوّعات ذات أهمية بالغة بالنسبة للسانيين الاجتماعيين، فقد اتّخذوها موضوعات أساسية للتحليل، لفهم العلاقة بين المتكلم (من حيث ثقافته، وجنسه، وطبقته الاجتماعية، والبيئة الجغرافية، ومكانته ودوره، وسياقات الحديث) بالنوعية اللغوية التي يستخدمها.